الفـــروق السيكلوجية
بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

إن ما أعنيه بالفروق السيكلوجية هى تلك الفروق العقلية والخلقية والمزاجية والجسمية الموجودة بين الأفراد . ومن السهل على المفكر العادى أن يدرك مظاهر تلك الفروق فى تصرفات الأفراد وفى إنتاجهم الاجتماعى والعلمي . وليس موضوع اختلاف الأفراد السيكلوجى حديثاً فى ذاته ، فقد تناوله العلماء والفلاسفة بالبحث منذ قرون . ولكنه حديث بالنسبة لبحثه بالطرق العلمية والإحصائية ، وتحديد تلك الفروق وتبويبها ، ومعرفة أسبابها ، وعزو ما هو وراثى منها للوراثة ، وما هو بيئى للبيئة . وهذا النوع من البحث العلمى فى الفروق السيكلوجية ظهر واحتل مكاناً بين فروع علم النفس فى الربع الأخير من القرن الماضى وذلك بنمو علم النفس التجريبي . وهو يعرف الآن بعلم النفس الفردى Individual Psychology

وأقدم من عالج هذا الموضوع أفلاطون فى جمهوريته ، فإنه حين وضع نظام المدينة الفاضلة بناه على أساس الاختلاف السيكلوجى بين أفراد الجماعة الواحدة . وكان يرى أن « العدل الاجتماعى » يقضى بأن يقوم الفرد بالعمل الذى أعد له بطبيعته ، والذى تقوى على تحمله وتسويته طاقته العقلية ، واستعداده الجسمى . وكانت نتيجة هذا المبدأ أن قسم أفلاطون سكان مدينته إلى طبقات ثلاث ، فجعل فيها طبقة الزراع والصناع والتجار ، وهؤلاء بطبيعتهم غير صالحين لأن يكونوا ضمن الطبقة الثانية طبقة الجنود المدافعين عن المدينة من الخارج والمحافظين على نظامها فى الداخل . وفوق هاتين الطبقتين طبقة ثالثة قد وهبت من المزايا العقلية والخلقية ما لم توهب الطبقتان الأخريان وهذه هى طبقة الفلاسفة والحكام الذين لهم حق الإشراف على الإدارة والقضاء والتشريع . وقد أشار أفلاطون فى الجمهورية إلى أن هذه الطبقة الأخيرة طبقة ممتازة بالفطرة . وأهم مميزاتها التفكير المنطق المعنوى ، والإدراك الفلسفى لحقائق الأشياء . ومن الغريب أن هذه الميزة التى يراها أفلاطون ضرورية لطبقة الفلاسفة هى التى يسميها بعض علماء النفس الحديثين الذكاء Capacity for thinking in abstract terms

وضع أفلاطون منهجاً لتربية هذه الطبقات الثلاث ، ورأى أنه من العبث أن يضيع المجهود فى تربية طبقة الزراع والصناع ، لأن هذه الطبقة ليست بفطرتها مستعدة للنمو الثقافى والترقى الفكرى .

وإذاً فمن صالح هذه الطبقة ـ وصالح الجماعة أيضاً ـ أن تنصرف إلى نوع العمل المستعدة له ، يعنى الزراعة[1] والصناعة؛ أما الطبقتان الأخريان فقد رأى العناية بتربيتهما من سن السابعة إلى سن العشرين .

وحينما يصل الشبان إلى هذه السن تكون قد ظهرت مواهبهم وقدراتهم للمشرفين على تربيتهم ، فيختارون من بينهم النابغين منهم عقلياً وتفكيرياً ليواصلوا دراساتهم الثقافية وتستمر دراسات هؤلاء المختارين مدة عشر سنوات يعالجون فيها من الموضوعات كل ما ينمى فيهم القدرة على التعليل المعنوى Abstrad reasoning . وفى نهاية عشر السنوات يُختار الصالح من هذه الطبقة ليكون مشرفاً إدارياً ، بينما يستمر الأصلحون منهم خمس سنوات أخرى فى دراسة الجدل والحوار المنطق ، وبذلك يكونون قد أُعِدُّوا لتحمل التبعة الكبرى ، تبعة الحكم الرئيسى

ويمثل رأى أفلاطون الذى شرحناه هذا مذهب الوراثيين الذين يبالغون فى أهمية الوراثة كعامل مرجح فى تكوين الصفات العقلية والخلقية والجسمية للفرد ، ويعزون للوراثة وحدها الفروق السيكلوجية بين الأفراد

ولسنا هنا فى مقام انتقاد هذا الرأى الأفلاطونى من الناحية

(١) كان أفلاطون يرى أن هذا النوع من المهن لا يحتاج إلى ذكاء أو إعداد عقلى سام

العلمية والسيكلوجية الحديثة ، ولا فى مقام شرح نقط الضعف فى نظام الطبقات وتربيتها ، تلك التربية التي أهملت عدداً كبيراً من المواهب الفردية والعناصر النافعة ضائعةً فى طبقة الصناع والتجار والزراع وفى طبقة الجنود . ولكنه ضرورى من الناحية التاريخية أن نشير إلى أن أفلاطون حاول أن تكون مراحل التربية وغاياتها فى المدينة الفاضلة مبنية على أساس أن هناك فروقاً عقلية وجسدية بين أفرادها . ويقابل هذا فى التربية الحديثة أن تكون المناهج الدراسية مختلفة باختلاف قوى التلاميذ العقلية واستعدادهم الطبيعى وميولهم الفطرية ، وأن يكون التعليم المدرسى فردياً أكثر منه جمعياً

اتبع أرسطو مذهب أستاذه أفلاطون فى قبول مبدأ الفروق السيكلوجية الفردية ، ولكنه اختلف عنه فى أن أهم هذه الفروق هى الفروق الجنسية .

فالمرأة عنده تختلف بطبيعتها عن الرجل من حيث استعدادها العقلى والجسمى والمزاجى والخلقى . ولذلك رأى أن يختلف نوع التربية التى تتلقاها عن تربية الرجل ، وأن تكون الغاية من تربيتها مختلفة عن الغاية من تربية الرجل . فلم يقرّ ما ذهب إليه أفلاطون من أن الطبيعة جعلت المرأة مساوية للرجل وهيأتها للمشاركة فى الجندية والسياسة . وزاد على ذلك أرسطو فحاول أن يحدد النمو البشرى العقلى والجسمى وطبيعته ، والعوامل التى تحدث الفروق السيكلوجية فى مراحل هذا النمو . وهو يرى أن التربية ليست آلة يستطيع بها المربّى أن يصوغ المربّى كما يشاء ، وأن يضعه فى القالب الذى يريد ، ولكن التربية وسيلة للتوجيه فقط ، توجيه القوى الكامنة والاستعدادات السيكلوجية الفطرية فى الأفراد توجيهاً إلى الناحية الصالحة ، وتوجيهاً عن الناحية الفاسدة .

وهو يرجع الفروق السيكلوجية بين الأفراد عامة إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

(١) الطبيعة البشرية (٢) العادة والتمرين (٣) التعقل .

أما الطبيعة فهى وراثية توجد فى الطفل منذ الولادة وهى كامنة فى الفرد فى جميع أطوار نموه . وأما العادة فهى أثر من آثار البيئة وهى التى تحدد اتجاه النمو الطبيعى والتطور الفردى .

وأما التعقل فهو الذى يتدخل فى قوانين العادة فيهذب منها ، ويبطل هذا ويحدث ذلك

ويدلنا مذهب أرسطو هذا على اعتداله ، وأنه يأخذ بمبدأ تأثير كل من الوراثة والبيئة فى إيجاد الفروق الفردية السيكلوجية . غير أنه يقول بأن فرداً لا يمكن تغييره وتحويره بحيث يعدو حدود طبيعته ، لأن أى مؤثر تربيوى إنما يحدث أثره فى الفرد ضمن قوى الفرد الطبيعية .

ويقرر أن الأفراد الذين يعوزهم الذكاء العقلى يعيشون طول حياتهم متخلفين عن غيرهم ممن منحوا هذا الذكاء مهما سلطت على الأولين من عوامل تربيوية قوية . وثمت نوع غير هذين النوعين من الأفراد وهم النابغون ، وهم قلائل ولا يحتاجون لاستغلال نبوغهم إلا إلى قدر يسير من التربية والتربية بالنسبة لغيرهم .

ونستنبط من مذهب أرسطو هذا أن الفرد بطبيعته مزود بقوى حسية وإدراكية محدودة ، وأن التربية (العادة فى نظره) هى التى تنمى هذه القوى وتعمل على أن تصل بها إلى مرحلة الكمال الممكن .

ولما كانت هذه القوى مختلفة عند الأفراد ، وكان أثر التربية فى كل فرد مختلفاً أيضاً كانت النتيجة أن الأفراد مختلفون فى تصرفاتهم وسلوكهم وإنتاجهم . وهذا ما يسميه علماء النفس الحديثون بالفروق الفردية السيكلوجية

كان اسكوراطس Iscorates الخطيب اليونانى القدير معنياً بتعليم الخطباء وتمرينهم وتنشئتهم . وقد أدرك هو أيضاً كعلم الفروق السيكلوجية بين من قام بإعدادهم من الطلبة لمهنة الخطابة واللسن .

وهو يقول فى هذا الصدد « لقد أشرفت على إعداد معلمى الخطابة ومعلمى الألعاب البدنية Gymnestics كما لاحظتهم

أثناء قيامهم بالتدريس ووصلت إلى نتيجة اقتنعت بها . وهي أنهم في مكنتهم أن يتقدموا بتلاميذهم ، وأن يرتقوا بهم إلى درجة يصيرون فيها أقدر على استعمال أجسامهم وعقولهم من ذي قبل . ومهما يكن من الأمر فإنه ليس في استطاعة معلمي الخطابة ، ولا معلمي الألعاب البدنية أن يخلقوا خطباء من أي أفراد يشاءون. نعم إن مجهود هؤلاء المعلمين ينتج إلى حد ما نتيجة نسبية ، ولكنه لا يمكن أن ينتج هذا المجهود أقصى ما يمكن إلا إذا صادف من التلاميذ من جمع بين فضيلتين : الذكاء وقبول التدريب »

وإذا نظرنا إلى الذكاء وجدنا أنه عامل وراثي ، أما التدريب فهو عامل بيئي ، وإذاً فقد قال أسكوراطس بأثر عاملي البيئة والوراثة معاً

هكذا كان مذهب أسكوراطس الأثيني في الوقت الذي كان فيه التفكير اليوناني ينظر إلى الفرد من جميع نواحيه السيكلوجية: الناحية الجسمية ، والناحية العقلية ، والناحية الخلقية ، والناحية الذوقية ، وكان مجموع هذه النواحي يُكوِّن عند الرأي اليوناني ما يسمى بالشخصية ، وكلما وجد تناسق وتناسب وانسجام بين هذه النواحي وبين أطوار نموها كانت الشخصية أقرب إلى الكمال

وينحو علم النفس الحديث هذا المنحى الأثيني ، مع اختلاف في طريقة البحث والقياس . فللأفراد شخصيات مختلفة، واختلاف الشخصيات هذا معناه الفروق الفردية السيكلوجية ، والشخصية وفقاً لعلم النفس الحديث يمكن تحليلها إلى عناصر أربعة : العنصر العقلي والعنصر الخلقي والعنصر الذوقي والعنصر الجسمي

(البحث بقية)

عبد العزيز عبد المجيد
رئيس شعبة اللغة العربية
بمعاهد بخت الرضا التجريبية بالسودان

شركة مصر للملاحة البحرية

ببواخرها الفاخرة وفنادقها الأنيقة

تسير بكم على بركة الله إلى بيت الله الحرام

وبنك مصر يؤدي لكم جميع الخدمات المصرفية ويتولى عنكم دفع الرسوم

فخذوا أهبتكم للحج هذا العام

جميع الاستعلامات من :

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها